مصطلح المقطع و علاقته بالإيقاع و الفصاحة في مفهوم الدكتور رضوان النجار

أ. نصيرة شيادي

جامعة تلمسان

نحن نتحدث باللغة العربية و نكتب بها ، ومن أظهر خصائصها أنها لغة مقطعية ، وللمقطع شأن كبير في بناء أصولها ، و في الإيقاع الذي يظهر في كلامها ، وفي الفصاحة التي تتطلبها كلماتها . **و نحن نضع أسطارنا هنا عرفانا وتقديرا لجهود أحد أعلام اللـــغة والأدب بجامعة تلمسان التي لا يمكن إغفالها ألا و هو أستاذنا الكبير: الدكـــــــتور " رضوان محمد حسين النجار ".**

و المقطع في اصطلاح الأصواتيين أقرب إلى قول العرب : مُقـــطّـــعات الكلام[1]، أي : أجزاؤه التي يتحلل إليهـــا و يتركب عنها ، يقول ابن الدهان[2]* (ت 592هـ) : " و بين الألفاظ والحروف المقاطع والمقاطع تنقسم إلى خفـــيفة

و ثقيلة ، فالخفـــيف مركب من صامت ومصوت ، و الثقيل من صامتين ومصوت ، لأنّ المصوّت إمّا أن يُنطق بـــه في ضعف الزمان أو أضعافه و يسمى مقطعا ممدودا، و الوتد المفروق العروضي مـــثل قاع ."[2]

فالأصواتيون أحسّوا بأنّ الأصوات في السلسلة الكلامية تتابع على شكل مجموعات متتالية يُمكنُ تمييز أصوات كلّ مجموعة من الأخرى ، ولا تتطابق هذه المجموعات الصوتية غالبا مع الكلمات التي تُؤلف تلك السلسلة ، فقد تتألف الكلمة من مجموعة واحدة أو أكثر ، وقد تتداخل تلك المجموعات بين كلمتين في الكلام المتّصل ، و أطلقوا على كلّ مجموعة منها اسم المقطع .[3]

و جاءت نتائج الدراسة التجريبية للعملية الكلامية مؤكدة لذلك، فقد أثبتت أنّ الصدر لا يواصل ضغـــطا ثابتـــا خلال المجموعة التنفسية ، وأنّ عضلات الصدر تنتج نبضة منفصلة من الضغط لكل مقطع .[4]

و على الرغم من اتّفاق الدارسين اليوم على تلك الحقيقة ، فإنّهم وجدوا أنّ تعريف المقطع أمر عسير .[5] ومن ثمّ فإنّهم لم يتّفقوا على تعريف محدّد له ، ويرجع جانب من ذلك إلى أنّهم يذهبون في تعريفه مذاهب شتّى (**صوتية ، وفيزياويـــة أو مخرجية ــ نطقية ــ أو وظيفية**) وإلى أنّ الأجهزة المستخدمة لم تُمكّنهم من رسم حدود المقطع بدقّة[6]. ومع ذلك هم يتّفقون على أهميته في الدراسة الصوتية ، باعتبار كلام الإنسان عبارة عن مقاطع صوتية يشكّل كلّ

مقطع " درجة في السلم الهرمي للوحدات الصوتية ، والتي يتشكّل كلّ منهما من أصغر وحدة تسبقه ، الوحدة الصّغرى الفونيم ، ثمّ يأتي المقطع المكوّن من فونيمات بترتيب معيّن ، ثمّ يأتي مجموعة النغم ـــ قطار المقاطع ـــ المحتوية على النبر وعلى تتابعات من مجموعة النغم ." [7]

فالمقطع هو مجال العمل الذي تشتغل عليه باقي الظواهر التشكيلية من : نبر و تنغيم وهو "الوحدة الأساسية التي يُؤدّي الفونيم وظيفة داخلها." [4] وبالتالي الأصوات اللغـــوية تقوم على عملية إنتاج المقطع. [8]

مثل هذه الدراسة ، و هذا المصطلح لم يكن بعيدا **عن أستاذنا الدكتور رضوان النجار** ، الذي اعتبر المقطع أساس الموسيقى إذ كل الأصوات تتألف من اجتماع الحركة و السكون بأشكال و مقادير مختلفة [9] ، فيحدث ما يسمى بالتأثير الصوتي الذي يعتبر من أهم المداخل إلى النفس البشرية [10] ، و يقول الذين كتبوا في علم النفس الموسيقي : إنّ هناك ميلا غريزيا لدى الإنسان إلى الكلام ذي الجرس الموســـيقي الجميل . [11] ومن ثمّ فإنّ الكلام الإنساني يحملُ كثيرا من عناصر الانسجام الصوتي حتّى في غير النصوص الشعرية التي تتّبع نظاما من التتابع المقطعي و الإيقاعي، **حيث أكّد الأستاذ الدكتور النجار أنّ الباحثين في الموسيقى وموسيقى الكتابة شعرا و نثرا يتحركون من المقطع** ، و عليه بنوا و يبنون بُحوثهم مهما اختلفت تشكيلاتهم ووجهـــــات نظرهم . ومن الأشكال التي

وصـــلوا إليها فيما يتعلق بالشـــعر الأسبـــــاب و الأوتـــاد و الفواصل و التفاعيل والأبحر ، و فيما يتعلق بالنثر الموسيقى الداخلية و الموسيقى الخفيّة .[12]

من جهة أخرى يثير الأستاذ الدكتور رضوان النجار قضية أخرى غاية في الخطورة ، ألا و هي علاقة المقطع بفصاحة الكلمة حيث يؤكد أنّ فصاحة الكلمة تتوقف على كيفية تجمع الحروف فيها ، مركزا على أصوات الحروف لا إلى أشكالها يقول " نستطيع رسم الحروف المتقاربة المخارج بجوار بعضها ، ولا نستطيع التلفظ بها إلاّ بصعوبة تجعل الصـــــوت غير بيّن . "[1] وهذا نفس تصور الجاحظ (ت 255هـ) لمفهوم الفصاحة ، الذي بيّن أنّ هذه الأخيرة تنطلق من بنيـــة اللفظ الصوتية ، وانسجام الحروف المركبة لها و تآلفها ، وقد بلور هذا المقياس الهام في مصطلح يبدو ثابتا واضح المعالم في أصول نظريته الأدبية و هو الاقتران . وهو في تفسيره التشابه و الموافقة . ولئن كان هذا التفسير غير دقيق في دلالته على أوجه التشابه و الموافقة بين الحروف فإنّ الأمثلة التي أوردها للاستدلال على كبر هذا الباب على ما يقول دليل على أنّ المقصود تجنب الجمع بين الحروف المتنافرة من جهة المخرج أو الصفات[13] ، فقد ذكر أنّ :

الجيم لا تقارن (**ظ ، ق ، ط ، غ**) بتقديم ولا تأخير

وَ **الزاي** لا تقارن (**ظ ، ش، ض ، ذ**) بتقديم ولا تأخير[2]

و يؤكد **أستاذنا الدكتور رضوان النجار مرة ثانية أنّ الفصاحة مرتبطة ارتباطا وثيقا بأصوات الحروف** [1] ، وهذا ما كان قد أكّده ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) في معرض حديثه عن فصاحة اللفظ وما يشترط فيه من صفات[14] " بأنّ الواضع للغة إن كانت مواضعه تجنب في الأكثر كلّ ما يثقل على الناطق تكلّفه و التلفظ به كالجمـــــع بين الحروف المتقاربة في المخارج ، وما أشبه . واعتمد مثل هذا في الحركات أيضا ، فلم يأت إلاّ بالسهل الممكن دون الوعر المتعب ، و متى تأملنا الألفاظ المهملة لم نجد العلة في إهمالها إلاّ هذا المعنى."[15]

و في موضع آخر يربط **الأستاذ رضوان النجار** فصاحة الكلمة بموسيقى الكتابة[1] أو المقطع، فبيّن أنّ الكلمة أشكال حروفها يختلف عن عدد أصواتها، وهذه الأخيرة بدورها إذا ترجمت إلى مقاطع (صور موسيقية) سوف تختـــلف عن سابقاتها، و يضرب لنا مثلا بهذا البيت الشعري :

حملوا الحرف الذي انشقّت على ... لحنهِ البكـــــــرِ شفاهُ الأبـــدَ

فيحدد أشكال الحروف في الصورة الخطية الظاهرة بأربعين شكلا حرفيا، لكن الإصغاء للأصوات المسموعة يُغيّر الأمر فهي خمسة و ثلاثون صوتا ، تظهر في الكتابة العروضية :

حملحرف للذ.نشققـــت على ... لحنهلبكر شفـــــــاهلأبدي

وإذا ترجمت أصوات البيت بصورة موسيقية مبسطة أي مقاطع نحصل على:

تَ ت تم ، تم ت تم تم ، تم ت تم .

تم ت تم تم ، ت ت تم تم ، ت ت تم .

فالشطر متكون من ثمانية عشرة صوتا حرفيا اجتمع في أحد عشر مقطعا، و في المقطع الثاني سبعة عشر صوتا حرفيا اجتمعت في أحد عشر مقطعا [16].

بعد هذه الجولة السريعة التي حاولنا أن نقف من خلالها على جهود أستاذنا المميز الأستاذ الدكتور رضوان النجار فيما يخـــص المقطع و علاقته بالإيقاع و الفصاحة ، نقول إنّ الرجل موسوعة شاملة ، و عالما ملما بعلوم اللغة و آدابها. له أسهام ظاهر في الكتابة و التدوين ، يمتلك ناصية التأليف، و إنّ لمؤلفاته خير دليل على ذلك . موضوعات كتبه مرتبة ترتيبا علميا و منطقيا ، أدبيا و فنيا.

تطرق الأستاذ لموضوع يعتبر من أهم فروع علم اللغة التشكيلي ، موضوع شامل إن صحّ التعبير ، مسّ ثلاثة جوانب: المقطع و الإيقاع و الفصاحة, ليكون الهدف واحدا إنه جمالية اللغة العربية بمفرداتهـــا و تراكيبها، **فجزاك الله يا أستاذنا العلامة الأستاذ المميز الدكتور رضوان النجار أفضل الجزاء، و جعلك فخرا و مفخرة لجامعات الجزائر و العرب عامة ، و لتلمسان خاصة.**

الهوامش

1 ـــ لسان العرب ، ابن منظور ، منشورات علي بيضون، لبنان ، ط1 ، 1424 هـ، 2003 م ، مادة (قطع) 8 / 332.

* ـــ ابن الدهان سعيد بن مبارك بن علي بن الدهان البغدادي أبو محمد ، ولد في رجب سنة 494 هـ بنهر طارق ، له معرفة كاملة بالنحو وكتب كثيرة في الأدب .

من مؤلفاته : شرح الإيضاح ، كتاب شرح اللمع ، كتاب العروض ، كتاب الدروس في النحو كتاب الفصول في النحو ، توفي سنة 569 هـ . ينظر : انباه الرواة على أنباه النحاة " القفطي الوزير جمال الدين أبي الحسن " ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت ، ط1 ، 2004 م، 47/2 ـــ 51.

2 ـــ المدخل إلى علم الأصوات العربية " غانم قدوري الحمد " ، دار عمار للنشر و التوزيع ، عمان ، ط1 ، 1425هـ ، 2004م ، ص 188، نقلا عن: تقويم النظر في الأدلة و اختلاف الفقهاء " ابن الدهان محمد بن علي " ، مخطوط دار الكتب المصرية ، الرقم 52 ، ص 92 .

3 ـــ نفسه : ص 189.

1ـــ دراسة الصوت اللغوي ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القـــاهرة ، ط3 1405 هـ ، 1985 م ، ص 237 ـــ 238 .

2 ـــ اللغة " فندريس " ، تعريب : " عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص " ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، دط ، 1950م ، ص 85.

3 ـــ علم الأصوات " بارتيل مالبرج " ، دراسة و تعريب : عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، المنيرة ، مصر ، دط ، دت ، ص 154 ـــ 155 و ينظر : دراسة الصوت اللغوي ، ص 238.

4 ـــ محاضرات في الألسنية العامة " فرديناند دي سوسير " ، ترجمة :" يوف عازي و مجيد النصر"، دار النعمان للثقافة، جونيه، لبنان، دت، دط، ص 27.

5 ـــ جماليات الصوت اللغوي ـــ دراسة لغوية نقدية ـــ "علي السيد يونس"، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، دط ، 2002 م، ص 68 .

6 ـــ المنظومة في العروض و القوافي و المصطلحات الموسومة ، رضوان محمد حسين النجار، مطبعة برصالي، تلمسان، ط 1 ، 1427 هـ، 2007 م، 68 .

7 ـــ اللغة و المجتمع " محمود السعران " ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ط2 ، 1963م، ص 114.

8 ــ المدخل إلى علم الأصوات ــ دراسة مقارنة ــ صلاح الدين صالح حسنين دار الاتحاد العربي للطباعة ، ط1 ، 1981 م ، ص 242 .

" ــ السبب هو : حرف متحرك بعده حرف ساكن و الوتد : يتكون من ثلاثة أحرف و الفاصلة قسمان فالصغيرة تتكون من أربعة أحرف ، ثلاثة أحرف متحركة بعدها حرف ساكن و الكبيرة تتكون من خمسة أحرف ، أربعة أحرف متحركة بعدها حرف ساكن . ينظر : المنظومة في العروض و القوافي و المصطلحات الموسومة ص 70 ــ 73 .

1 ــ المنظومة في العروض و القوافي و المصطلحات الموسومة ص 68 .

2 ــ التفكير البلاغي عند العرب ،صمود، دط ، 1981 م ، ص 226 ــ 227

3 ــ المسدي ، الدار العربية للكتاب، تونس ، 1981 م ، ص 15 .

4 ــ سرالفصاحة، ابن سنان الخفاجي،علي فودة،القاهرة ،ط1 ،1932 م ،ص51 .

5 ــ المنظومة في العروض و القوافي و المصطلحات الموسومة ص 69 .

قائمة المصادر و المـــراجع

1 ــ انباه الرواة على أنباه النحاة " القفطي الوزير جمال الدين أبي الحسن " ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 ، 2004 م.

2 ــ التفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره إلى القرن 6 هـ حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية ، دط 1981 م .

3 ــ التفكير اللساني عند العرب ، عبد السلام المسدي ، تونس ، 1981 م .

4 ــ جماليات الصوت اللغوي ــ دراسة لغوية نقدية ــ "علي السيد يونس"، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، دط ، 2002 م .

5 ــ دراسة الصوت اللغوي ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القـــــــاهرة ، ط3 1405 هـ ، 1985 م .

6 ــ سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، علي فودة ، القاهرة ، ط 1 ، 1932 م .

7 ــ علم الأصوات "بارتيل مالبرج" ، دراسة و تعريب : عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب ، المنيرة ، مصر ، دط ، دت .

8 ــ اللغة " فندريس " ، تعريب : " عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص" ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهـــرة ، دط ، 1950م .

9 ــ اللغة والمجتمع"محمود السعران" ،دار المعارف ،الإسكندرية ، ط2، 1963م.

10 ــ لسان العرب ، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري ، راجعه : عبد المنعم خليل إبراهيم ، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه : عامر أحمد حيدر ، منشورات علي بيضون ، لبنان ط1 1424 هـ ، 2003 م .

11 ــ محاضرات في الألسنية العامة " فرديناند دي سوسير " ، ترجمة :" يوف غازي و مجيد النصر " ، دار النعمان للثقافة ، جونيه ، لبنان ، دت ، دط.

12 ــ المدخل إلى علم الأصوات ــ دراسة مقارنة ــ صلاح الدين صالح حسنين دار الاتحاد العربي للطباعة ط1 ، 1981 م .

13 ــ المدخل إلى علم الأصوات العربية " غانم قدوري الحمد " ، دار عمار للنشر و التوزيع ، عمان ، ط1 1425هـ ، 2004م .

14 ــ المنظومة في العروض و القوافي و المصطلحات الموسومة ، رضوان محمد حسين النجار، مطبعة برصالي تلمسان ، ط 1 ، 1427 هـ ، 2007 م.

رضوان يا خير من جادت به القيم

أ.د. حسين فارسي

جامعة تلمسان

رضوان يا خير من جادت به القيم ... و يا عظيما سعت في إثره الشيم

أصول مجد عروبة النقا ظهرت ... و قد بدت فيكم كأنها العلم

ولاح سر شموخ مجدها بارزا ... في شخصكم صعدا كأنه الاطم

و فيكم من جلال الضاد معلمة ... قد وشحت بحديث زانه القلم

و كم لكم في مجال البحث من شرف ... ما زال يعلو و قد سما به الكلم

أنت الخليل بحور الشعر تعرفكم ... كم غصتها و لكم يحدوكم السلم

أنت الأصيل فدم واحم التراث ففي ... صون التراث لنا مجد لنا قدم

يا جهبذا في لسان العرب قد أشرفت ... رحاب مهدنا بفضل شخصكم

و قد غدا في طلاب السبق نحو العلا ... كم طالب نال من فيض فيوضكم

و صار من كنتم بالأمس شيخهم يحظون بالعز والإجلال لولكـــم
كفاك فخرا شيوخ الأزهر البررة أولوك مفخرة أسرارها الحكـم
فكنت أهلا لما قد حزت من شرف و صرت معلم من أهدافه الذمـم
و كم بفضلكم علت مراتبنـــا و قد سما ذكرنا كأنه النجـم
قريحة الشعر فاض نبعها سلسا حسين صاحبها في صدق مدحكـم

تلميذك الوفي

أ.د. حسين فارسي